الفصل الخامس

ذكر بعض الأسباب التي تقي بإذن الله تعالى من آفة التكاثر

إن مما يقي من آفة التكاثر في الدنيا، ويقوي هم الآخرة في النفوس، التعرف على الأضرار الناجمة عن التكاثر، التي سبق ذكرها؛ ففيها الدافع القوي لمن وفقه الله ﷻ إلى الحذر الدائم من الركون إلى الدنيا، والاستعداد لرحلة الخلود الطويلة، والتمهيد للمستقبل الأبدي السرمدي، ومع ذلك فيحسن ذكر بعض الأسباب المعينة على تدارك زمن المهلة، والانتباه من رقدة الغفلة، فإن انضم إلى ذلك صدق العزيمة وعلو الهمة، نفعت بإذن الله ﷻ، نسأله سبحانه أن ينفعنا بها، ومن هذه الأسباب ما يلي:

١ - دعاء الله ﷻ واللجوء إليه والاستعانة به سبحانه في التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود

إن الخير كله والتوفيق كله بيد الله ﷻ، فما أفلح عبد ونجا من فتنة الدنيا وأناب إلى الآخرة إلا بتوفيق الله سبحانه وإعانته، وعلى هذا فإن سؤال الله ﷻ والتضرع إليه سبحانه، واللجوء إليه من أعظم الأسباب وأنفعها للعبد في توفيقه وفلاحه، والعبد هالك ومخذول إن وكل إلى نفسه أو إلى عمله الضعيف.

وهـذا سـيد العارفين والخائفـين والراجين محمـد ﷺ يقول: «**لن يدخل الجنة أحدًا عمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[1].

والأدعية الواردة في سؤال التوفيق إلى عمل الآخرة ونعيمها كثيرة، منهـا قوله ﷺ: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هـو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»[2]، ومنها قوله ﷺ: «**ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي**»[3]، ومن الأدعية النافعـة في هذا المقـام قوله ﷺ في دعائه بعد التشـهد الأخير: «**اللهم إني أعـوذ بك من الجبن، وأعوذ بـك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر**»[4]، وقوله ﷺ: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**»[5]، وفي رواية أخرى (**كفافًا**).

قال في شرح مسـلم للنووي: (قال أهل اللغة العربية: القوت ما يسـد الرمـق، وفيه فضيلة التقلـل من الدنيا، والاقتصـار على القوت منها، والدعاء بذلك)[6].

---

(١) البخاري (٥٦٧٣)، في الرقاق ومسلم (٢٨١٦).
(٢) مسلم (٢٧٢٠) في الذكر والدعاء.
(٣) جزء من دعاء رواه الترمذي وحسنه (٣٤٩٧) كتاب الدعوات.
(٤) البخاري (٢٨٢٢).
(٥) مسلم (١٠٥٥).
(٦) شرح النووي ٧/ ١٤٦.

٢- العلم بالشرع والبصيرة في الدين ومعرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته الحسنى

كلما كان العبد أعلم بالله سبحانه، وبأسمائه وصفاته، وبأحكامه وشريعته، وبالطرق الموصلة إلى رضاه، كان أحرص على ما يقرب إلى الله سبحانه، وكان أكثر استعدادًا للآخرة، وأعرف بما يرضي الله ﷻ فيفعله، وما يصده عن الله والدار الآخرة فيتجنبه ويحذره، وهذا من أعظم فوائد العلم الشرعي والبصيرة في الدين، إذا صاحب هذا العلم قوة في العمل والإرادة والعزيمة على ترجمة العلم إلى العمل.

وفي هذا الشأن يقول الإمام ابن القيم رحمه الله (السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره، ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية. فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك، فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع للماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها؛ فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها أبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه، ويشمر مسافرًا في الطريق، قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل، فهانت عليه مشقة السفر، وكلما سكنت نفسه من كلال السير، ومواصلة الشد والرحيل، وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمة.

فهو يقول: يا نفس أبشري، فقد قرب المنزل، ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت المسير وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة؛ فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين، فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها، وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء... ولا يوحشه انفراده في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين... وليعلم أن هذه الوحشة

لا تـدوم، بل هي من عوارض الطريق... ولا يسـتوحش بما يجده من كثافـة الطبع، وذوب النفس، وبطء سـيرها، فكلما أدمن على السـير، وواظـب عليه غدوًّا ورواحًا وسـحرًا قرب من الدار، وتلطفت تلك الكثافة، وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم، فتبدلت وحشته أنسًا وكثافته لطافة وبدنه طهارة.

فمـن الناس من يكـون له القـوة العلمية، الكاشـفة عن الطريق ومنازلهـا وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكـون هذه القوة أغلب القوتـين عليه، ويكـون ضعيفًا في القوة العملية: يبـصر الحقائق، ولا يعمـل بموجبها، ويرى المتالـف والمخاوف والمعاطـب ولا يتوقاها، فهـو فقيـه مـا لم يحـضر العمل، فـإذا حضر العمـل شـارك الجهال في التخلـف، وفارقهـم في العلـم، وهذا هـو الغالب على أكثـر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمه الله، ولا قوة إلا بالله.

ومـن الناس من تكون له القـوة العملية الإرادية، وتكون أغلب القوتـين عليـه، وتقتـضي هـذه السـير والسـلوك والزهـد في الدنيـا، والرغبة في الآخرة، والجد والتشـمير في العمل، ويكون أعمى البصر عنـد ورود الشـبهات في العقائد والانحرافـات في الأعمال والأقوال والمقامات، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشـهوات، فداء هذا من جهله، وداء الأول فسـاد إرادتـه، وضعف عقله، وهذا حال

أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذوق والوجد والعادة...

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله، ورجي له النفوذ، وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته، فإن القواطع كثيرة، شأنها شديد لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها، وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد، والوقت كما قيل: سيف فإن قطعته وإلا قطعك.

فإذا كان السير ضعيفًا والهمة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفًا والقواطع الداخلة والخارجة كثيرة شديدة، فإنه جهد البلاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب، فيأخذ بيده، ويخلصه من أيدي القواطع. والله ولي التوفيق)[1].

٣- قراءة القرآن وتدبره والإكثار من ذكر الله تعالى وإدامته:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨].

(١) طريق الهجرتين ١/ ٢٨٥ نشر دار ابن القيم تحقيق عمر بن محمد أبو عمرو.

فالقرآن الكريم أكبر المواعظ وأنفعها للقلب، وذلك لمن تدبره ووعاه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

والذي لا يتعظ بمواعظ القرآن، فإنه مريض القلب، ومن باب أولى ألا يتعظ بغيره، فالإكثار من قراءة القرآن وتدبر معانيه ومواعظه العظيمة من أكبر الأسباب الجالبة لإنشاء هم الآخرة والاستعداد لها؛ لأن القرآن الكريم لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من ذكر اليوم الآخر، وما فيه من الأهوال العظيمة والحساب والجزاء والجنة والنار، كما أنه يتضمن ذكر الدنيا وفنائها والتحذير منها.

والحاصل أن الحياة مع القرآن ومواعظه ووعده ووعيده يجعل قلب المؤمن في استعداد دائم متصل بهذا اليوم المشهود، كما يجعله حذرًا من الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل، وإن مما يعين على تدبر القرآن والتأثر بمواعظه، أن يكون ذلك في الصلاة، وبالذات في صلاة الليل الآخر، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

ومما يلحق بقراءة القرآن وتدبره كثرة ذكر الله تعالى في الصباح والمساء، وفي أحوال اليوم والليلة، لما في ذلك من تطرية القلوب وعلاج لقسوتها، فإذا رق القلب بذكر الله تعالى أثرت فيه مواعظ الآخرة، وامتلأ بحب الله ﷻ، وما أعد لأوليائه في الآخرة، وعكس ذلك القلب القاسي البعيد عن ذكر الله ﷻ.

روى ابن أبي الدنيا: أن رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، فقال «أدبه بالذكر»[1].

يضاف إلى ذلك ما تشتمل عليه بعض الأذكار من ذكر للآخرة والمصير إليها، والاستعاذة بالله من شرورها ومن عذاب النار، وما فيها من سؤال الجنة ونعيمها؛ كل ذلك مما يذكر بالآخرة، ويجعل العبد في منأى عن الغفلة والنسيان ما دام لسانه رطبًا بذكر الله تعالى.

٤- الإكثار من ذكر الموت وزيارة القبور والمرضى وتشييع الجنائز

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات: الموت**»[2]، وعن أبي هريرة أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكركم الموت**»[3]،

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا ص٧٢.
(٢) الترمذي في الزهد (٢٣٠٧).
(٣) الترمذي في الزهد (٢٣٠٨) وقال: حسن غريب. وصححه الألباني.

ففي الحديثين السابقين إشارة إلى أثر الموت وتذكره في الاستعداد للآخرة، وعدم الركون إلى الدنيا، وعدم الاغترار بلذاتها ومتعها، فإنها زائلة عن قريب بهاذم اللذات ومفرق الجماعات.

ومما يذكر بالموت، حضور تغسيل الموتى وتشييع الجنائز، وزيارة المقابر، والسلام على الموتى، والدعاء لهم، ورؤية القبور المحفورة، وتمثل الإنسان نفسه فيها، وهو لا شك سيرقد فيها في يوم من الأيام.

كما أن في زيارة المرضى الذين أقعدهم المرض، وقربهم من الآخرة مما يذكر أيضًا بالموت والاستعداد للآخرة بتدارك الصحة والعافية، قبل أن يحال بين العبد وبين ذلك بالمرض أو الموت.

إنه لا شيء في الدنيا أفظع ولا أخطر من ساعة الاحتضار؛ ولذلك فالحضور عند المحتضرين من أسباب رقة القلب وإنابته إلى الله والدار الآخرة.

ويصف ابن الجوزي رحمه الله تعالى ساعة الاحتضار، فيقول:

(من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنه ينتبه انتباهًا لا يوصف، ويقلق قلقًا لا يحد، ويتلهف على زمانه الماضي، ويود لو ترك كي يتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف، ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في

أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى، فالعاقل من مثل تلك الساعة وعمل بمقتضى ذلك).[1]

ويصف الأستاذ إبراهيم السكران حفظه الله تعالى حقيقة الموت فيقول:

(حين يتمعن الإنسان في هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة الموت؛ تسري به سلسلة التساؤلات إلى هذه المفارقة التي نعيشها يوميًّا؛ أعني التناقض بين العقيدة والسلوك، إذا كنا نؤمن فعلًا بأن لحظة توديع الدنيا قريبة منا، قريبة منا جدًّا؛ إنها لحظة بالأبواب، إنها على طرف الثمام، وقد أخذت أعدادًا ممن ساكنونا وآكلونا وناقشونا وزاملونا ودرسونا؛ فكيف يا ترى نغفل ونحن نرى أخبار الموتى لا تتوقف؟ وقد أشار القرآن إلى هذه المفارقة بين قرب الأجل في مقابل استمرار الغفلة، فقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وأخذت مرة أتأمل أسباب هذه الإشكالية في كتاب الله، وأحاول البحث عن موقف القرآن من هذه العلاقة، فوجدت ثلاثة مشاهد صوَّر القرآن تفاصيلها، تكشف سرًّا من أسرار المشكلة، ألا وهو مشكلة التأجيل.

---

(١) صيد الخاطر ص١٤٦.

فهذه الخطايا التي لا زلنا نواقعها لا تجدنا غالبًا مخططين للاستمرار عليها، وإنما نقول في أنفسنا إنها مجرد فترة يسيرة وسنصحح أوضاعنا جذريًّا، لكن الزمان يتفارط، وينسل الوقت من بين أيدينا ونحن لا نشعر، حتى نتفاجأ بملك الموت واقف ليأخذ أرواحنا في الساعة المقدرة... أرأيت؟ إنه الذهول عن الحقائق الكبرى تحت غمامة التأجيل..

أخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يسألون الله أن يرجعهم، ويعاهدونه أن يعملوا الأعمال الصالحة التي أجلوها، ولكن هيهات، لقد فات الأوان، يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠].

أمامنا اليوم فرصة للعمل الصالح قبل أن تأتي هذه الساعة القريبة المفاجئة، التي لن تنفع فيها التوسلات بالعودة لزمان العمل..

وأخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يسألون الله فسحة زمنية يسيرة، ليتصدقوا، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن فات الأوان؟! يقول تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١٠ - ١١] .

وهـا نحن الآن في زمـن إمكانية التصدق، فهل سـنتردد في قرار النفقـة حتى تأتي تلك السـاعة التي نبدي فيها الاسـتعداد للتصدق، ولكن بعد فوات الأوان؟!

وأخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يعلنون التوبة ويسـتغفرون الله، ولكن هل هذا هو وقت التوبة والاستغفار؟ يقول تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

لا زلنا الآن في السـاعات الأخيرة التي تسبق إغلاق باب التوبة، والتوبـة إلى الله تحتاج قرارًا فوريًّا عاجلًا، قرار لا يحتمل التأجيل ثانية واحدة، قرار يجب أن يدشن الآن، قبل أن تفوت الفرصة..

هذه المشـاهد الثلاثة التي ذكرها القرآن عـن أحوال المحتضرين وأمنياتهم، من أشد المشاهد زلزلة لمشاعر المؤمن الموقن بلحظة الموت وقربها.. وخصوصًا إذا وضع نفسـه في هذه المشاهد، فتخيل كيف لو كان هو نفسـه يسأل الله عند الاحتضار أن يعود للدنيا ليعمل صالحًا، أو يسـأل الله أن يعود للدنيا ليتصدق ويكون من الصالحين، أو يسأل الله عنـد الاحتضـار أن يتوب عليه ويغفر لـه، وفي كل هذه الأمنيات يواجـه بالرفض؛ لأنها دعوات تجـاوزت الموعد النهائي للقبول، وقد كان يمكنه ذلك لو بادر قبل هذه اللحظة..)[1].

(١) ذهول الحقائق موقع المسلم.

٥- محاسبة النفس في تقصيرها والتفكر في حقيقة الدنيا وزوالها، والآخرة ودوامها

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الحشر: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وعن ثابت بن حجاج قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم، وزنوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ١٨]»[(١)].

إن من أقوى الأسباب المعينة بإذن الله تعالى على تدارك العمر والحذر من الدنيا والتكاثر فيها وتذكر الآخرة والاستعداد لها محاسبة النفس ومجاهدتها، وتدارك العمر القصير قبل حلول الأجل، والنظر في سرعة زوال الدنيا وفنائها، والتفكر في الآخرة وبقائها.

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص٣٣.

ويبين ابن القيم رحمه الله تعالى بعض ما يعين العبد على المحاسبة فيقول:

(ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا، إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدًا، ويعينه عليه أيضًا معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم، فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر، ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها، وخطراتها وخطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، لاحظ لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز، لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠][1].

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٨١.

ويتحدث الغزالي رحمه الله تعالى عن إطالة التفكير في الدنيا وفنائها، وأثر ذلك في الاستعداد للآخرة، فيقول:

(ولا يسلم الناس من أهوال يوم القيامة إلا من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة، ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عيناك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب، وتعود إلى لهوك ولعبك، فما هذا من الخوف في شيء، بل من خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا شيئًا طلبه، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته، وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة، فقال أحدهم: استعنت بالله، اللهم سلم سلم، وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم، فالشيطان يضحك من استعاذتهم، كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء وراءه حصن، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين، وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه! فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه، فأنى يغني عنه ذلك من السبع؟!

وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: لا إله إلا الله صادقًا، ومعنى صدقه ألا يكون له مقصود سوى الله تعالى، ولا

معبـود غـيره، ومن اتخـذ إلهه هواه فهـو بعيد من الصـدق في توحيده وأمره مخطر في نفسه[1].

ويبقـى في هـذه الفقـرة إتحـاف القـارئ بنـماذج من محاسـبة السـلف لأنفسـهم، وأخـرى مـن حثهم على محاسـبة النفس، وما تنطـوي عليه من تقصير وتفريط.

أ- عن إسحاق بن إبراهيم أنه سمع سفيان بن عيينة يقول: (قال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلـت لنفسي: أي نفـسي، أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيـا وأعمـل صالحًا، قال: قلت: فأنـت في الأمنية فاعملي)[2].

ب- وقـال ميمون بن مهـران: (لا يكون العبـد تقيًّا حتى يكون لنفسه أشد محاسـبة من الشريك لشريكه؛ ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك)[3].

(١) إحياء علوم الدين ٧/ ٢٨١.
(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا، تحقيق عبدالله الشرقاوي وقال: رجاله ثقات ص٣٩.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٠٣.

حـ- وقال الحسن: (المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك من حاجتي، ولكن والله ما من صلة إليك، هيهات هيهات، حيل بيني وبينك.. إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئًا حتى يلقى الله)[1].

وهذه صورة من صور المحاسبة في حوار مع النفس الأمارة بالسوء يصورها الشيخ السعدي رحمه الله تعالى، فيقول:

(ويحك يا نفس! كم بيني وبينك في المعاملة، أنتِ تريدين هلاكي، وأنا أسعى لك بالنجاة، وأنت تحيلين عليَّ بكل طريق يوقع في المضار والشرور، وأنا أجتهد لك في كل أمر مآله الخير والراحة والسرور، فهلمي يا نفس إلى صلح شريف يحتفظ كل منا على ما له من المرادات والمقاصد، ونتفق على أمر يحصل به للطرفين أصناف المصالح والفوائد.

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٠٣ رقم ٣٦٣٥٧. وانظر: صفة الصفوة (٣/ ٢٣٤).

دعيني يا نفس أمضي بإيماني متقدمًا إلى الخيرات، متجرًا فيه لتحصيل المكاسب والبركات، دعيني أتوسل بإيماني إلى من أعطاه أن يتمه بتمام الهداية، وكمال الرحمة، وأكمل ما نقص منه، لعل الله أن يتم عليَّ وعليك النعمة، ولئن تركتني وشأني لم تعترضي عليَّ بوجه من الوجوه؛ لأعطينك كل ما تطلبينه من المباحات، وكل ما تؤمله النفوس وترجوه، ولئن تركتيني وشأني لأوصلنك إلى خيرات ولذات طالما تمناها المتمنون، وطالما مات بحسرتها قبل إدراكها الباطلون.

يا نفس، أما تحبين أن تنقلي من هذا الوصف الدنيء إلى أوصاف النفوس المطمئنة التي اطمأنت إلى ربها، وإلى ذكره، واطمأنت إلى إعطائه ومنعه، واطمأنت في جميع تدبيره، واطمأنت إلى توحيده والإيمان به حتى سلاها عن كل المحبوبات، واطمأنت إلى وعده حتى كانت هي الحاملة للعبد على الطاعات المزعجة له عن المعاصي والمخالفات.

فلا يزال المؤمن مع نفسه في محاسبة ومنافرة حتى تنقاد لداعي الإيمان، وتكون ممن يقال لها يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠][1].

(١) الفتاوى السعدية.

٦- الاعتكاف وترك فضول الاختلاط

إن مما يعين على مجاهدة النفس، وإنشاء همّ الآخرة إحياء سنة الاعتكاف، وخاصة في العشر الأواخر من رمضان، ففي الاعتكاف تحصل للعبد منافع عظيمة منها:

أ- التفرغ للنفس ومحاسبتها، وتفقد أخطائها ومثالبها ومعاصيها في ماضي حياتها، وأثر ذلك في صدق التوبة وتطامن النفس وتواضعها، وذلك عندما يعلم المحاسب لنفسه أنها كلها عورة وضعف وخطيئة.

ومن هذه المعاصي التي يحاسب العبد فيها نفسه حقوق الخلق بداية من حقوق الوالدين والأزواج والأولاد والأقربين إلى حقوق الآخرين وماذا فرط فيها.

ب- الشعور الشديد بالفاقة والفقر إلى الله ﷻ والضرورة القصوى لإعانته سبحانه وإغاثته وتوفيقه، والشعور بخطر الاعتماد على النفس والثقة المفرطة فيها.

جـ- فراغ القلب في الاعتكاف من مشاغل الدنيا ومشكلاتها، وأثر ذلك في ملء القلب بذكر الله ﷻ والإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور.

د- الحياة مع كلام الله ﷻ والعيش مع كتابه العزيز، وما يحوي من ذكر الآخرة وما فيها، وذكر أنبيائه وأوليائه، وأثر ذلك في محبتهم والشوق إلى مصاحبتهم والتأسي بهم، وبما أصابهم في سبيل الله ﷻ وكيف صبروا وصابروا مع ما في القرآن من ذكر الله ﷻ وأسمائه وصفاته، والأجر العظيم في تلاوته والقيام به آناء الليل وأطراف النهار.

هـ- الانقطاع عن الناس وقلة الاتصال بهم وبكلامهم، وأثر ذلك في صفاء القلب وتقبله للمواعظ والزواجر مع ما في ذلك من ترك لآفات اللسان التي قل من يسلم منها.

و- في الاعتكاف نقلة من حياة الترف مع الأهل والأولاد في المساكن المترفة والفرش الناعمة إلى حياة الاعتزال والمسكنة والفراش الخشن والأكل القليل، وهذا بدوره يؤثر في حياة المعتكف ونظرته للدنيا، مع ما يصاحب ذلك من النوم القليل، فكل ذلك يؤدي بإذن الله تعالى إلى تقوية العزيمة وتنشيط النفس؛ لأن النفس تثقل مع كثرة الفضول من الطعام والنوم والكلام والخلطة.

ز- في الاعتكاف وحبس النفس في مكان معين مجال لتربية النفس على الصبر والمصابرة واكتشاف قوة التحمل والصبر عند

النفس، وفي هذا ترويض للنفس وتوطئة لها على النقلات المفاجئة - نسأل الله ﷻ العافية والثبات - كما أن في ذلك تذكرًا للصلحاء المبتلين الذين يمضون في معتقلاتهم الأشهر والسنوات، فيتوجه بالدعاء لهم بالتثبيت وسؤال الفرج لهم.

ح- في الانقطاع عن الأهل والأولاد في المعتكف مع الشوق إليهم؛ تذكير بالموت والانقطاع الطويل عنهم، وهذا بدوره ينعكس على بذل الجهد في صلاح النفس والأهل، لعل الله ﷻ أن يجمع الشمل في جنات النعيم، التي لا ينفد نعيمها ولا يتفرق أهلها.

ك- في الاعتكاف تعود على أعمال فاضلة يحصل فيها التفريط غالبًا عند الكثير كأداء السنن الرواتب، والصف الأول، والطمأنينة في الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن لوجود التفرغ التام للعبادة، ولعل المعتكف أن يدوم عليها بعد الخروج من المعتكف.

ومن الأوقات التي يخلو فيها العبد بنفسه، بعيدًا عن الخلق ما قبل غروب الشمس وقبل طلوعها حيث ورد فضيلة هذين الوقتين وفضيلة ذكر الله ﷻ فيها ومحاسبة النفس فيها، وكذلك آخر ساعة من يوم الجمعة، وما يرجى فيها من إجابة الدعاء.

٧- مصاحبة أهل الخير الذين تذكر رؤيتهم وكلامهم الآخرة، والقراءة في سير الزاهدين من السلف:

قال الله ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

هذه وصية الله ﷻ لنبيه ﷺ ولأمته من بعده، وما ذاك إلا لما يكون من أثر الصالحين الذين إذا رُؤوا ذكر الله ﷻ وذكرت الآخرة، وهذا واقع ومجرب، فما أن يعيش المسلم بين أهل الخير ويستمع إلى مواعظهم ويرى سمتهم وأخلاقهم ويقرأ في كتبهم ويطلع على زهدهم وسيرتهم إلا ويتأثر بهم، ويتأسى بفعالهم الطيبة، وتبقى الآخرة في ذهنه دائمًا، والعكس من ذلك فيمن يصاحب أهل الدنيا الغارقين في لججها، والغافلين عن النبأ العظيم، حيث يظهر أثر هذه المصاحبة في قسوة القلب ونسيان الآخرة، وما يترتب على ذلك من ضعف الاستعداد لها أو عدمه. وإن هذا الأمر ليتأكد في زماننا اليوم أكثر من أي وقت مضى. هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن وتزينت فيه الدنيا لأهلها، وتنافس الناس وتكاثروا فيها، وتجمعوا حول حطامها، وكان جل حديثهم فيها. وقل في هذا الزمان من يذكر بالآخرة، ويحذر من الدنيا وغرورها.

كل ذلك يؤكد ضرورة الحذر من أهلها وضرورة الالتصاق بأهل الصلاح والزهد والإصلاح، والمعايشة المستمرة معهم، والإكثار من سماع المواعظ والقراءة في كتب الوعظ وسير الصالحين والزاهدين من سلف هذه الأمة وعلى رأسهم سيد الزاهدين نبينا محمد ﷺ وألا يكتفي بالزيارات المتفرقة أو القراءة المتفرقة، فإن نفعها في هذا الزمان قليلة؛ فالنفس إن لم يتوال عليها الوعظ والتذكير فإنها تلهو وتنسى مع الوقت إذا طال بعدها عن ذلك.

وهذا ما يوضحه ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كون المواعظ يزول أثرها بعد إلقائها، ولا يستمر ذلك الأثر في النفس طويلًا -يقول رحمه الله -: (قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة، فتدبرت السبب في ذلك فعرفته، ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة واحدة من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها، لسببين:

أحدهما: أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت وقوعها.

والثاني: أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه، فإذا

عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها، وكيف يصح مع تلك الجواذب أن يبقى كما كان؟!)[1].

٨- ضرورة إحياء الوعظ في الأمة بمفهومه الشامل

ينبغي تكثيف طرح المواعظ في المحاضن التربوية ودور العلم وحلق التدريس والعلم وفي مخاطبة الناس في خطبة الجمعة والمحاضرات والكلمات والندوات ومدارسة الكتب والمؤلفات والأشرطة، التي تهتم بهذا الجانب من جوانب التربية والتزكية، وفي هذا المقام أنبه نفسي وأخواني المربين إلى أن يولوا هذا الجانب من جوانب التربية اهتمامهم، وأن يكون له الحظ الأكبر في التوجيه والتربية والطرح والمناقشة والمناصحة.

ومن الأمور المهمة التي ينبغي للمربين العناية الكبيرة بها في التربية أن يكونوا قدوات لمن يربونهم ويوجهونهم، وإلا فلن يكون لمجرد الكلام والنصيحة الجدوى في التحذير من الدنيا والتكاثر فيها والتحذير من الترف إذا لم يكن المربي قدوة لطلابه في الزهد وعدم الركون إلى الدنيا.

---

(١) صيد الخاطر. ص١

إذ كيف يطمع المربي في تغيير سلوك وأخلاق من يربيهم، وهم يرون الفصام والتناقص بين ما يقوله ويقرؤه لهم، وبين سلوكه وأحواله في نفسه وبيته ونمط حياته، والتربية بالقدوة تفعل ما لا تفعله مئات الكلمات والمقالات. أو ليس من المفارقات والتربية المشوهة أن يسمع المربي من أستاذه أو شيخه الحث على التقلل من الدنيا والتحذير من التكاثر فيها، ثم هو يرى شيخه من أهل التكاثر فيها، سواء في ملبسه أو مطعمه أو مسكنه أو مركبه أو غير ذلك من أعراض الدنيا.

٩- تعويد النفس ومن ثم اليد على السخاء والبذل في سبيل الله ﷻ

واليأس مما في أيدي الناس والسعي في طلب الرزق بدون مغالاة أو حرص أو خوف على فواته أو قطعه، والحذر من البطالة، والقعود عالة على الناس، وترك الأسباب بحجة التوكل على الله تعالى، والقناعة بما كتب الله ﷻ من الرزق واليقين بأن القليل من نعيم الدنيا يكفي لعبور هذه الدار وأن الذي ينبغي الاهتمام به والحرص عليه هو عيش الآخرة ونعيمها.

وأن يقدم لنفسه في الآخرة من النفقة والخير ما يجده عند الله ﷻ أحوج ما يكون إليه.

الخاتمة

الحمدلله رب العالمين على تيسيره وتوفيقه. وأود في خاتمة هذه الرسالة أن أنبه على ثلاث مسائل مهمة لها ارتباط وثيق بما سبق بيانه في الفصول السابقة حول قوله سبحانه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. حيث لا يتم البحث إلا بها.

المسألة الأولى:

إن ما ذكر في ثنايا البحث في التحذير من الركون إلى الدنيا والتكاثر فيها والتقلل منها لا يعني ترك العمل فيها وبذل الأسباب في الكسب الحلال منها، كما لا يعني اعتزال الناس وترك الفساد ينتشر بينهم دون مدافعة له ولا إصلاحًا وجهادًا كما لا يعني ذم الغنى إذا كان من مصدر حلال وفي إنفاق حلال (سئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن الرجل يكون معه ألف دينار، هل يكون زاهدًا. قال: نعم بشرط أن لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت)[1]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (والزهد: ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة، وما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله، فليس تركه من الزهد المشروع)[2] وقال أيضًا: (والزهد قد يكون مع الغنى، وقد يكون مع

(١) مدارج السالكين ٢/ ١١.
(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٨.

الفقر. ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير)[1] ويتحدث سيد قطب رحمه الله تعالى عن أثر الإيمان والعمل الصالح على الحياة الطيبة ورغد العيش في الدنيا والآخرة، وأنه لانفصام بين الدنيا والآخرة، وذلك في الدروس المستفادة من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ - ٦٦]، أسوقه بطوله لكبير فائدته.

يقول رحمه الله تعالى:

(**الدرس السادس**: أثر الإيمان وتطبيق شرع الله في الرخاء المعيشي وفي نهاية الدرس تجيء القاعدة الإيمانية الكبرى قاعدة أن إقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء، لا افتراق بين دين ودنيا، ولا افتراق بين دنيا وآخرة، فهو منهج واحد للدنيا وللآخرة؛ للدنيا وللدين تجيء هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة بمناسبة الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله؛ وأكلهم السحت؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه، لينالوا عرضًا من أعراض هذه الأرض،

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٨.

واتباع دين الله كان أجدى عليهم في الأرض والسماء وفي الدنيا والآخرة، لو أنهم اختاروا الطريق ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

إن هاتين الآيتين تقرران أصلًا كبيرًا من أصول التصور الإسلامي، ومن ثم فهما تمثلان حقيقةً ضخمةً في الحياة الإنسانية، ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل، وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم؛ والعقل البشري والموازين البشرية والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج بإزاء هذا الأمر الخطير.

إن الله سبحانه يقول لأهل الكتاب، ويصدق القول، وينطبق على كل أهل كتاب: إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفَّر عنهم سيئاتهم، ولأدخلهم جنات النعيم، وهذا جزاء الآخرة، وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل، وما أنزله الله إليهم من التعاليم، كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل، لصلحت حياتهم الدنيا ونمت، وفاضت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، من فيض الرزق، ووفرة النتاج، وحسن التوزيع،

وصلاح أمر الحياة، ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون، ولا يقيمون منهج الله إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل، مقتصدة غير مسرفة على نفسها، وكثير منهم ساء ما يعملون....

... إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية، لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم، بحيث أصبح الفرد العادي وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة لا يرى أن هنالك سبيلًا للالتقاء بين الطريقين، ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه؛ وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه؛ ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع، لأن واقع الأرضي والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا حقيقة. إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله وعن منهجه للحياة اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع الدنيوية أن يتخلوا عن طريق الآخرة؛ وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية؛ والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف الذي يحض عليه الدين كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة، وأن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة والوسائل التي يصل بها الناس في مثل

هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع، لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة، ولا مطابقة للدين والخلق، ولا مرضية لله سبحانه وتعالى، ولكن تراها ضربة لازب، ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس، ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، كلا أنها ليست ضربة لازب، فالعداء بين الدنيا والآخرة؛ والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ليس هو الحقيقة النهائية، التي لا تقبل التبديل، بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلًا، إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارىء. إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة؛ وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا، وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة، كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا؛ وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض، كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي. هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية، ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله، الذي رضيه للناس، فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة، وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة. والخلافة عمل وإنتاج ووفرة ونماء وعدل في التوزيع، يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما يقول الله في كتابه الكريم.

... ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطًا أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه؛ ليستوثق الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مرات وفي العام الواحد ثلاثين يومًا بصوم رمضان وفي العمر كله بحج بيت الله وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة. ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة، وهي قربة لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج، الذي ينظم أمر الحياة كلها، ويتولى شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم، ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف، التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل، والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق ...

... وهذه وتلك معًا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معًا؛ والطريق هو الطريق، ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية، كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم، والتي منها يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة، ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع، لأنهما لا تجتمعان.

إن هذا الفصام النكد، بين طريق الدنيا وطريق الآخرة في حياة الناس، وبين العمل للدنيا والعمل للآخرة، وبين العبادة الروحية والإبداع المادي، وبين النجاح في الحياة الدنيا وفي النجاح في الحياة الأخرى، إنما هو ضريبة بائسة، فرضتها البشرية على نفسها، وهي تشرد عن منهج الله، وتتخذ لنفسها مناهج أخرى من عند أنفسها، معادية لمنهج الله في الأساس والاتجاه، وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهم وأعصابهم في الحياة الدنيا، فوق ما يؤدونه منها في الآخرة، وهو أشد وأنكى. إنهم يؤدونها قلقًا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر من جراء خواء قلوبهم من طمأنينة الإيمان وبشاشته وزاده وريه، إذا هم آثروا اطراح الدين كله على زعم أن هذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة والنجاح الفردي والجماعي في المعترك العالمي، ذلك أنهم في هذه الحالة يصارعون فطرتهم، يصارعون الجوعة الفطرية إلى عقيدة تملأ القلب، ولا تطيق الفراغ والخواء، وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية أو فلسفية أو فنية على الإطلاق، لأنها جوعة النزعة إلى إله.

وهم يؤدونها كذلك قلقًا وحيرة وشقاء قلب وبلبلة خاطر إذا هم حاولوا الاحتفاظ بعقيدة في الله، وحاولوا معها مزاولة الحياة في هذا المجتمع العالمي الذي يقوم نظامه كله، وتقوم أوضاعه، وتقوم تصوراته، وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج

الله، وتتصادم في العقيدة الدينية والخلق الديني والسلوك الديني مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود،وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء، سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية، وتتصور أو يصور لها أعداء البشرية أن الدين لله وأن الحياة للناس، وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق، والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل. وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة، ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء، لأنها لا تهتدي إلى منهج الله، الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع؛ ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة بل ينسق.

ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة في فترة موقوتة، إذ نرى أممًا لم تؤمن ولا تتقي، ولا تقيم منهج الله في حياتها، وهي موفورة الخيرات مثيرة الإنباح عظيمة الرخاء. إنه رخاء موقوت حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت، وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني، والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى، تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم، مما يجعل المجتمع حافلًا بالشقاء، وحافلًا بالأحقاد، وحافلًا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة، نتيجة هذه الأحقاد العظيمة، وهو بلاء على رغم الرخاء، وتظهر في الكبت

والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعًا من عدالة التوزيع، واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع، وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن، ولا يبيت ليله في سلام، وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره إن عاجلًا أو آجلًا إلى تدمير الحياة المادية ذاتها، فالعمل والإنتاج والتوزيع كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق والقانون الأرضي وحده، عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل، كما نرى في كل مكان. وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم وبخاصة أشدها رخاء ماديًّا مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال، ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج، وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء، وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحًا كافيًا يلفت الأنظار وتظهر في الخوف التي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة؛ في هذا العالم المضطرب؛ الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون؛ فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار، كما انتشر في أمم الرخاء، وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار، وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي،

وليس هذا إلا مثلًا للآخرين في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني؛ وافتراق الدنيا والآخرة وافتراق الدين والحياة؛ أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله، واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس؛ وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس، وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة، نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس، وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض. فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب ولكل جماعة من الناس أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا، وأن تكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة؛ وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة، وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان، ولكننا مع هذا التوكيد يجب أن لا ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية، فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة فضلًا على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة؛ ويرفع كل قيم الحياة؛ ويقوم على كل موازين الحياة فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي وكل شيء فيه تجيء تبعًا له ومنبثقًا منه ومعتمدًا عليه، ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق،

وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحياة كل أولئك ثمرته للإنسان وللحياة الإنسانية، فالله سبحانه غني عن العالمين، وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس، وجعلها مناط العمل والنشاط؛ ورد كل عمل وكل نشاط ما يقوم عليها وعده باطلًا لا يقبل، وحابطًا لا يعيش، وذاهبًا مع الريح، فليس هذا، لأن الله سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواه وعبادته له وتحقيق منهجه للحياة، ولكن لأنه سبحانه يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهج في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا**

في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله؛ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1]. وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله، فهي كلها لحسابنا نحن لحساب هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعًا، وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعًا)[2].

المسألة الثانية:

إن المطالبة بإحياء فريضة الوعظ والتذكير بالآخرة والحذر من الدنيا والركون إليها والتكاثر فيها، لا يعنى به ذلك الوعظ المعروف الذي يمارسه بعض الوعاظ، جزاهم الله خيرًا، للتذكير بالموت وأهوال يوم القيامة وما فيها من جنة ونار فحسب. نعم هذا من الوعظ ولابد منه. ولكن الوعظ والتذكير بالآخرة والخوف من الله ﷻ وعذابه أشمل من هذا الذي هو معروف بين الناس إنه ذلك الوعظ الذي ينبغي أن يصاحب كل درس وكل محاضرة وكل خطبة

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٣ عند الآيتين رقم (٦٥، ٦٦) من سورة المائدة.

وكل عمل وسلوك يربط ذلك كله بأسماء الله ﷻ الحسنى وما تثمره في القلوب من إخلاص ومحبة وخوف ورجاء ويقين وزهد، وغيرها من أعمال القلوب، كما ينبغي أن تربط بمعرفة حقيقة الدنيا والآخرة وأن يحسب ليوم القيامة حسابه وما فيه من الأهوال والحكم بين الناس بالقسط والإنصاف للمظلوم من الظالم وأخذ حقه ممن ظلمه مهما دق وصغر قال الله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ولو تدبرنا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لرأينا واضحًا جليًّا فلا نكاد نجد آية أو حديثًا صحيحًا إلا ويختم أو يتضمن التذكير باليوم الآخر أو باسم أو اسمين من أسماء الله ﷻ يناسب سياق الآية أوالحديث ولو كانت هذه الآية أو الحديث في موضوع دنيوي أو حكم شرعي في المعاملات بين الناس وعلى سبيل المثال:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

- وفي وسط ذكر أحكام الطلاق وعدة المطلقة وعدة المتوفى عنها زوجها ونفقة المطلقة قال الله ﷻ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

- وبعد ذكر آيات الربا والنهي عنه قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] والمقصود أن الوعظ هو موضوع القرآن وهدفه الأساس، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨].

وفي الحديث التالي يتبين لنا أن إنشاء واعظ الله في قلب المؤمن هو الصمام الأساس في تحقيق التقوى بفعل المأمور وترك المحظور محبة وخوفًا ورجاءً، وهذا يشمل كل خطرات القلوب وألفاظ اللسان وعمل الجوارح. وهذا هو الوعظ الشامل المطلوب بناؤه قال ﷺ: **«ضرب الله تعالى مثلًا صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس! ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا. وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن فتحته تلجه، فالصراط الإسلام والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى. وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي من فوق: واعظ الله في قلب كل مسلم»**[1].

(١) رواه أحمد (١٧٦٣٤) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٩١).

لذا أنصح نفسي ومشائخي العلماء وإخواني الدعاة والمجاهدين وطلبة العلم وجميع الخطباء أن يربطوا جميع دروسهم ومحاضراتهم وخطبهم وجميع علومهم بهذا الجانب المهم من جوانب التربية والتزكية، ألا وهو جانب الوعظ بتعظيم الله ﷻ ومحبته والخوف منه ورجائه وإنشاء هم الآخرة في النفوس، وذلك في كل الدروس والمحاضرات والخطب بما في ذلك المواضيع والدروس العلمية البحتة كدروس العقيدة ودروس الفقه وأصوله وعلوم النحو والفرائض وغيرها، وهذا هو الغاية من العلم بجميع فروعه، فاقتضاء العلم والعمل والخشية لله ﷻ. وهنا كلام نفيس للإمام ابن رجب رحمه الله تعالى يؤكد هذه المعاني، قال رحمه الله تعالى:(ومن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله ﷻ واستعان عليه أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه. وحين إذ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به، وهي خشية الله، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن مسعود وغيره (كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار بالله جهلًا) وقال بعض السلف: (ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية) وقال بعضهم:(من خشي الله فهو عالم ومن عصاه فهو جاهل) وكلامهم في هذا المعنى كثير جدًّا.

وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة. وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاؤه والتوكل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه، والتباعد عما يكرهه ويسخطه. فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، فمتى كان العلم نافعًا ووقر في القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له، وذل هيبة وإجلالًا وخشية ومحبة وتعظيمًا. ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به، فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا، وكل ما هو فانٍ لا يبقى من المال والجاه وفضول العيش الذي ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعيم الآخرة.... فالعلم النافع ما عرف به العبد ربه ودل عليه ووحده وأنس به واستحى من قربه، وعبده كأنه يراه.

ولهذا قالت طائفة من الصحابة: (إن أول علم يرفع من الناس الخشوع) وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع) وقال الحسن: (العلم

علمان، فعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم. وعلم في القلب فذلك العلم النافع) وكان السلف يقولون: (إن العلماء ثلاثة. عالم بالله، وعالم بأمر الله. وعالم بالله ليس بعالم بأمره. وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، وأكملهم الأول، وهو الذي يخشى الله ويعرف أحكامه))[1].

المسألة الثالثة:

إن مما يعين على نشر الوعظ في الأمة وقبولها له وتأثيره فيها إخلاص الواعظ لله ﷻ والحذر من طلب المال والجاه من وعظه وتخليص الوعظ مما شابه من المخالفات الشرعية والبدع المحدثة التي ابتدعها كثير من القصاص في القديم والحديث مما يخالف هدي النبي ﷺ وصحبه الكرام والتابعين لهم بإحسان. يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: (فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث. وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف، وغير ذلك والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولًا. ثم الاجتهاد على الوقوف في معانيه وتفهمه ثانيًا. وفي ذلك كفاية لمن عقل. وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل)[2].

(١) فضل علم السلف على الخلف ص٧.
(٢) فضل علم السلف على الخلف ص٦.

وأسوق فيما يأتي بعض المخالفات التي يجب على الوعاظ أن يجتنبوها حتى تؤدي الموعظة أثرها وثمارها في القراء والسامعين:

المخالفة الأولى:

الجهل والقول بلا علم: وذلك أن بعض الوعاظ هداهم الله عندما يجد نفسه واعظًا للناس بلسانه أو قلمه، ولا سيما إذا كان متكلمًا فصيحًا، فيظن بنفسه خيرًا، وأنه على درجة من العلم والتقى، فيدفعه ذلك إلى أن يفتي في بعض مسائل الدين من عقيدة أو أحكام بغير علم أو بنصف علم، فيضل و يُضل، فعلى من يدخل في وعظ الناس وإرشادهم أن يكون على علم بما يقول وعلى دراية من الشريعة وفهم نصوصها، فيما يوجه الناس إليه، فإن الله ﷻ يحب الكلام بعلم وعدل، ويكره الكلام بجهل وظلم. ومما يجدر ذكره هنا أن كثيرًا ممن يتصدر للوعظ مزجى البضاعة في علوم الشريعة ضعيف التحصيل منها.

المخالفة الثانية:

وهي فرع عن سابقتها، وذلك أن بعض الوعاظ ولضعف علمه بالشريعة رواية ودراية، نجده يأتي بالغرائب في وعظه من أحاديث ضعيفة واهية أو موضوعة أو قصص غريبة، قد تكون مخالفة لأصول الشريعة وبديهة العقول، لذا وجب على الوعاظ أن ينقوا وعظهم من الاستدلالات الواهية والأخبار الغريبة، وفيما ورد من الكتاب

والسنة الصحيحة غنية عما سواهما. يقول أحد السلف عن مثل هؤلاء الوعاظ: (يأخذون الحديث منا شبرًا ويجعلونه ذراعًا).

المخالفة الثالثة:

يجتهد بعض الوعاظ في ذكر بعض الأخبار والقصص الكاذبة بحجة التأثير في الناس وترغيبهم أو ترهيبهم. وليس في ذلك حجة، لأن الغاية لا تبرر الوسيلة، وقدوتنا في هذا سيد الواعظين عليه الصلاة والسلام، فكان لا يقول ولا يخبر إلا حقًّا وصدقًا، فكيف نرغب عن سنته ﷺ ونقدم عليها الذي هو أدنى؟

المخالفة الرابعة:

المبالغة في رفع الصوت في أثناء الوعظ، وكأنها صياحًا ونياحًا، ولا سيما مع المكبرات الصوتية حتى يضج المسجد وما حوله، ويحصل من جراء ذلك الإزعاج الشديد للسامعين، مما يضعف أثر الوعظ عليهم، ويودوا لو أنه سكت، ومن ذلك إملال السامعين وشعورهم بطول وقت الموعظة وعدم التحضير لها.

المخالفة الخامسة:

إظهار المبالغة والزيادة من الواعظ في التخشع وتصنع البكاء مما يخشى فيه على الواعظ من الرياء والسمعة، ويلحق بذلك إظهار

التفاصح والتشدق في الحديث، وإظهار حفظ المنقول من الكلام نثره وشعره.

المخالفة السادسة:

قيام بعض الوعاظ بتلحين وعظه والتغني به، وبعضهم يكتفي من ذلك بتلحين الآيات القرآنية والأشعار الزهدية. وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى أن هذا من البدع ولم ينقل عن السلف فعلها. يقول رحمه الله تعالى: (مما أحدثه الوعاظ وبعض الخطباء مغايرة الصوت عند تلاوة الآيات لنسق صوته في وعظه أو الخطابة وهذا لم يعرف عند السالفين، ولا الأئمة المتبوعين، ولا تجده لدى أجلاء العلماء في عصرنا، بل يتنكبونه، وكثير من السامعين لا يرضونه، والأمزجة مختلفة، ولا عبرة بالفاسد منها، كما أنه لا عبرة بالمخالف لطريقة صدر هذه الأمة وسلفها، والله أعلم)[1].

المخالفة السابعة:

المبالغة من بعض الوعاظ في التزيين والتجمل في الثياب والهيئة والعباءات الفاخرة، وكذلك التكلف والإسراف في نفقات السفر لإلقاء المواعظ، وكذلك في المآكل والمساكن والمراكب، وقد يكون هذا على حساب الداعين للواعظ القادم لبلدهم. هذا مع أن الواعظ في وعظه قد يزهد في

(١) بدع القراء القديمة والمعاصرة ص٣٢.

الدنيا ويحذر من الركون إليها والتكاثر فيها، ويرغب في الآخرة، فما عسى أن يكون شعور السامعين له، وهم يرون التناقض بين القول والعمل؟

المخالفة الثامنة:

موافقة بعض المتصوفة في طريقة وعظهم وتقليدهم في بعض بدعهم وشطحاتهم، كالدعوة إلى ترك الدنيا وترك الأسباب والحث على اعتزال الناس بإطلاق وتغليب الخوف على الرجاء وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى بحجة أن في ذلك فتنة.

وبعد:

فهذا ما يسر الله ﷻ به، ووفق إليه من الكتابة في هذا الموضوع الجلل، فما كان فيه من صواب فمن الله ﷻ، فهو المان المتفضل به وحده، وأحمده وأشكره على ذلك. وما كان من خطأ وانحراف فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله ﷻ من ذلك كله، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

مساء الأربعاء ٩/ ٣/ ١٤٣٦هـ